السيميـــائية و التـــــداولية

رشيد بن مالك

1.مدخل منهـــجـــي

إن الحديث عن السيميائية و التداولية يطرح علينا مجموعة من التساؤلات لا نلقى عناصر الإجابة عليها إلا إذا عملنا على تجلية الإشكالية البحثية أولا و رصد التيارات اللسانية التي تقف وراء البرامج العلمية الكفيلة بفهم النشاط اللغوي في علاقته بالموضوعات السيميائية التي يعبئها الفاعل المتكلم لإقامة التواصل مع المتلقي.من هذه المنطلقات تصف التداولية استعمال المتكلمين للأدلة اللغوية بهدف التأثير في الآخرين(1)، و تحقيق مقاصدهم التواصلية.في إطار هذا التوجه العام للتداولية تعددت زوايا النظر و اختلف أصحابها في مسألة الاقتراب من الفعل الكلامي.لا نستطيع من خلال هذا البحث الإحاطة بكل هذه التيارات و لكننا سنحاول أن نقف عندها و في الحدود التي تسمح لنا بتقديم بعض الإمضاءات الخاصة بالاقتراب اللساني و السيميائي من التداولية.

2.الاقتراب اللساني من التداولية

يمكن أن نلاحظ في البداية أن التداولية الأمريكية(سيرل J.A.Searl) التي تنزع إلى المنظور الفلسفي تعطي الأولوية للآثار التي يحدثها الفاعل المتكلم في المستمع أو الملفوظ له دون أن يهتم في ذلك بالارتقاء إلى الاستراتيجيات التي يسخرها اللافظ.و يذهب ج.ر.سيرل إلى أن الوظيفة الأولى و المباشرة للفعل الكلامي هي تغيير وضعية المتكلمين ، و يؤكد على نتائج فعل الكلام،و في قدرته على خلق وضعية جديدة.

من الواضح أن الاقتراب من أفعال اللغة، من هذه المنطلقات، يعمل على تجلية نتائج فعل اللغة و عزل طرق الفعل والاستراتيجيات التي يعبئها اللافظ لتحقيق العملية التواصلية.

في هذا الاتجاه، يميز أوستين بين الملفوظات التقريرية و الملفوظات الإنشائية.تسمى العبارة إنشائية إذا كانت مسخرة لوصف حدث . و تكون تقريرية في حالتين: أ) إنها تصف فعل المتكلم ب) يعني تلفظه تنفيذ هذا الفعل. في: "ينبغي أن تنظف البيت"، فإني لا أعبر فقط عن رأيي في ما هو مريح من أمر التنظيف للمخاطب، و لكني في الوقت نفسه أصدر أمرا.

في إطار هذا التوجه العام نشير إلى أن غريس H.P. Grice الذي استطاع أن يتخلص من المقابلة العقيمة دلالة عكس استعمال، أبدى استعداده للتأكيد على أننا ،في مجال التواصل ،لا نستعمل فقط الكلمات أو سلسلة الكلمات، بل إن استعمالنا يمتد أيضا إلى معاني الكلمات و الجمل .فهو يتحرى عن القواعد التي بموجبها نستعمل معاني الكلمات أو الجمل لبلوغ أهدافنا التواصلية.تأسيسا على هذا، يقدم غريس، في ارتكازه على السياق غير اللغوي ، مبدأ عاما مستقلا عن فعل الكلام و يتحكم في العملية التواصلية، إنه نوع من السلوك الفكري للفرد. فهو بذلك يؤسس مبدأ التعاون في التبادل التفاعلي على مقاصد المساهمين. و لئن كانت هذه المقاصد غير موضحة بين المشاركين في التبادل، فإنها تشكل عناصر متخفية تضمن السير العادي للتواصل.و سوف نلاحظ من خلال نص أورده رولان بوسنير في بحثه حول

الدلالة و الاستعمال(2) أن الأولوية في التحليل تعطى في المقام الأول إلى التخريجات الدلالية الممكنة من خلال تقديم بعض الفرضيات المصوغة في شكل حكم وذلك بهدف ضمان تواصل المتكلم في العملية التلفظية.

و يقترح غريس ، في اتجاه آخر، مبدأ عاما يكون فاعلا في استقلاليته عن فعل الكلام، و يتحكم في التبليغ و يحتكم إلى هذا المبدأ السلوك العقلاني للفرد الذي يؤسس مبدأ التعاون في التبادل التفاعلي حول مقاصد المساهمين. و نلاحظ في تحليله للمدونة الآتية :

- أنزل سلة النفايات، من فضلك.
- أحب أن تنزل سلة النفايات.
- هل تستطيع أن تنزل سلة النفايات ؟
- هل ترغب في إنزال سلة النفايات ؟
- هل أنزلت سلة النفايات ؟ (3)

أنه عقد أهمية قصوى إلى متلقي الرسالة و كل الممكنات الدلالية التي يمكن أن يتوقف عندها في أثناء تأويل الجمل من منطلقات السياق غير اللغوي.إن هذا السياق بوصفه مرجعا يقصى،منهجيا، من المنظور السيميائي لأنه يعتبر في حد ذاته لغة قابلة للتمفصل وفق العلاقة: دال/مدلول. هذا، و قد وضع الباحث المدونات تحت مجهر الحكم maximes التي تعد كمصفاة يكمن دورها في ضبط القنوات التواصلية الدالة. و تبعا لهذا التوجه المنهجي، يظل منتج الملفوظ في لحظة ترقب لرد فعل المتلقي. و قد حاول الباحث تقديم مجموعة من الافتراضات من موقع الأم بوصفها لافظة و بنى على السياق غير اللغوي بعض التأويلات التي قد تنأى عن المرامي الدلالية للجملة الموضوعة قيد الدرس.

من هذه الزاوية، يولي غريس أهمية قصوى إلى التأثير الذي يمارسه المتكلم بغرض حمل الماخطب أو متلقي الرسالة على تنفيد ما طلب منه بشكل ضمني.و في مقابل ذلك يضع غريس نفسه موضع الأم و يتوقع الإجابات الممكنة على طلبها.إنه يعمل على إبراز الروابط التي توحد الكلام

بالفعل دون أن يركز في الوقت نفسه على المتكلم(اللافظ) المخاطب(الملفوظ له) و الموضوع السيميائي بوصفهم الأطراف الأساسية في العملية التواصلية المعبأة لتحقيق الفعل التواصلي. من هذه المنطلقات ،ينبغي أن نستعين بالأدوات الإجرائية السيميائية الكفيلة بتقديم إضاءات بخصوص البعد التداولي في الاقتراب من المواضيع السيميائية. و سنركز في ذلك على إسهامات كورتيس المهمة التي استطاع بفضلها أن يحقق قفزة نوعية في الاقتراب المنهجي من المسألة التداولية. إن هذه المهمة، كما سيلاحظ ذلك معي القارئ، ليست سهلة على الإطلاق ذلك أن الاهتمام بمسألة التلفظ في إطار النظرية السيميائية حديث العهد.

3.الاقتراب السيميائي من إشكالية التلفظ

عرف البحث السيميائي في أثناء الاقتراب من هذه المسألة و على مدى مراحل عديدة تحولات جذرية.و قد ظهرت أولاها في أعقاب اللسانيات الجملية التي انكبت على البحث في سمات التلفظ داخل الملفوظ .غير أن بقية الخطاب كانت تبدو و كأنها مفصولة عن التلفظ. من هنا، جاء التمييز بين مستويين.المستوى الأول القصة المروية أو الملفوظ الملفوظ (énoncé énoncé في الاصطلاح السيميائي)، أما المستوى الثاني فإنه ينهض على الطريقة التي تقدم بها القصة(في اصطلاح ج.جينيت) أو التلفظ الملفوظ énonciation énoncée. و نلقى التصور نفسه و في مصطلحية مغايرة عند إميل بنفنيست الذي كان أول من ميز من منطلقات لسانية بين الحكاية (le récit) و الخطاب(le discours). انطلاقا من التمييز الذي وضعه غريماس-استنادا إلى طروحات إ.بنفنيست اللسانية(4) - بين عوامل التلفظ و عوامل السرد(5) المحددة و الذي ينضوي تحت السيميائية الكلاسيكية التي أولت في السبعينيات و الثمانينيات أهمية خاصة إلى سمات التلفظ المسومة في الملفوظ ،أعاد جوزيف كورتيس قراءة الإرث السيميائي وفق آليات جديدة تنظر إلى الموضوع السيميائي على أنه محصلة لعملية

التلفظ التي ترتهن في وجودها إلى فاعل التلفظ الذي يغطي وضعيتين عامليتين : اللافظ و الملفوظ له(6). حتى نوضح هذه المسألة يجدر بنا أن نقدم بعض الإضاءات المنهجية بخصوص المقاربة المنهجية المسخرة لفحص الموضوعات السيميائية قبل و بعد 1992.

1.3 إشكالية التلفظ : التوجهات السيميائية قبل 1992

1.1.3 التوليفة الأولى:من الملفوظ إلى التلفظ [1991]

إن المتتبع للحركة السيميائية،و تحديدا مدرسة باريس، يلحظ من دون مشقة أن الآليات المنهجية كانت معبأة لدراسة الموضوعات السيميائية المدركة في استقلاليتها عن الجهاز التلفظي. على هذا الأساس، جاء التمييز المبني على طروحات إ.بنفنيست ، بين المروي و الطريقة التي يروى بها المروي.ضمن هذا الإطار، كان السيميائي مدعوا ،و هو إزاء نص معطى، أن يستنبط تنظيمه الداخلي، و يوضح وضعية الملفوظ له فيما يعرض عليه .و لئن كان السيميائيون يدركون أن معنى الجملة أو الخطاب لا يمكن أن يحصر إلا في إطار تلفظي معطى، فإن ج.كورتيس يعترف في هذا الصدد بأنه كان يتم في الغالب التعامل مع الملفوظ كما لو أنه يملك دلالة مستقلة (عن) أو سابقة(على) تلك المتعلقة بالتلفظ .مع العلم أن الملفوظ محصلة للتلفظ(7) .و من هنا، فإن الخطاطة التي رسمها كورتيس توضح جيدا كيف أن السيميائية لم تكن تنزع إلى الفعل التلفظي بل كانت تتموضع من جهة محصلته(الموضوع السيميائي)(8):

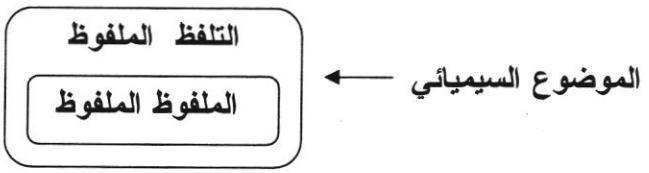

يبرز هذا الطرح الرؤية المنهجية التي كانت تقف وراء البرنامج المسطر للتصدي للملفوظ الملفوظ الذي يشكل مركز الاهتمام في المقام الأول و يليه التلفظ الملفوظ الذي يختتم به المسار التوليدي لدلالة محددة .من هنا جاء كتاب كورتيس : من الملفوظ إلى التلفظ .

على أساس هذه التمييزات كان دائما يتم التعامل مع الملفوظ (الذي هو في حقيقة الأمر محصلة للتلفظ)كما لو أنه يملك دلالة مستقلة أو سابقة عن التلفظ على الرغم من أن الاعتقاد السائد آنذاك شيد على رؤية ينظر صاحبها إلى معنى جملة أو خطاب بكامله في سياق تلفظي محدد.

2.3 التوجهات السيميائية بعد 1992

1.2.3 التوليفة الثانية : من التلفظ إلى الملفوظ [1995]

يعلن جوزيف كورتيس عن رغبته في قلب معنى المسار :من التلفظ إلى الملفوظ الذي يأخذ الشكل الآتي :

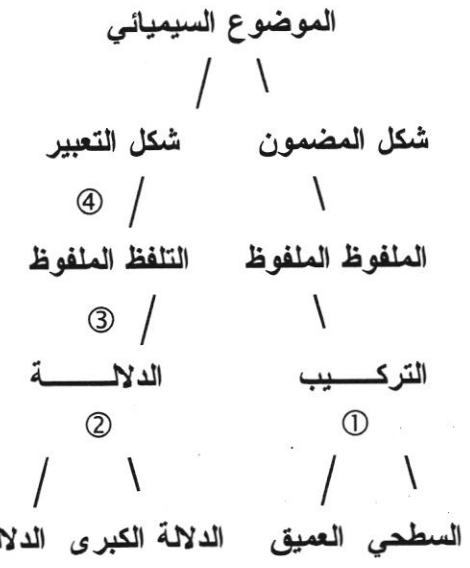

كان التوزيع في هذه الخطاطة سائدا في بداية التسعينيات.و يتفرع فيه شكل المضمون إلى الملفوظ الملفوظ و التلفظ الملفوظ.و يبدو هذا التوزيع في الوضع الراهن للبحث غير مقبول و ذلك لاعتبارين. أولهما: إن العرض العقلاني للمسار القائد من التلفظ إلى الملفوظ يعمل على تجلية الدلالة. ثانيهما: يدخل صعيد التعبير في عداد المكون التلفظي على نحو ما نلحظ ذلك في الخطاطة الآتية المدرجة في التوليفة الثالثة(9).

2.2.3 التوليفة الثالثة : [1998]

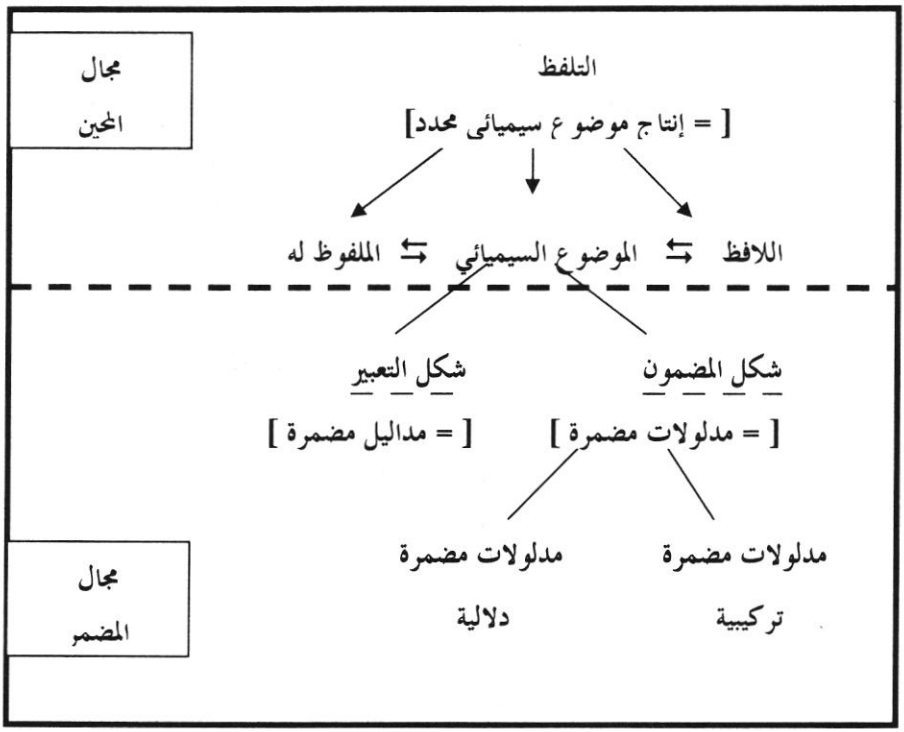

في هذه الخطاطة ،يفصل الخط الأفقي المتقطع المجال العلوي المحين[المرتبط بالتلفظ] عن المجال السفلي المضمر [الذي يشمل كل

التنويعات الثقافية الممكنة وذلك تبعا لمختلف أنواع الكلام المسخرة].
و يلاحظ كورتيس أنه لهذا السبب تعمل الخطاطة على تجلية الفعل التلفظي بوصفه "تحيينا" مسخرا لإنتاج موضوع سيميائي مفترض.و بمجرد أن يتنقل الموضوع(بين اللافظ و الملفوظ له)، يكون التلفظ متوافقا مع المرحلة السيميائية المسماة "تحقيقا ":فتنتصب الدلالة (و هي دائما غير قارة) التي يكون على أساسها اللافظ و الملفوظ له متفقين أو موجودين على الأقل في نفس الخط الدلالي. و يلاحظ قارئ هذه الخطاطة أن تجزيء الموضوع السيميائي إلى شكل المضمون و شكل التعبير يقع في مستوى مضمر يفترضه التلفظ، و يفضي بذلك إلى حكايات مختلفة.في هذا الموقع بالذات نلقى كل المتغيرات التي لا تكون محصورة في ثقافة بعينها و لكنها تمتد من ثقافة إلى أخرى و وفقا للاختيارات الموجودة في كل واحدة منها و التي يرتهن النظام المضمر إلى وجودها.و تكون ،في كل هذا،الكلمة الأخيرة للتلفظ الذي يحتل الصدارة في توجيه الحكاية في هذا الاتجاه أو ذاك و نصب إستراتيجيته الخاصة.

3.3 الموضوع السيميائي

من الواضح أن الموضوع السيميائي ينتصب في صلب الفعل التلفظي ليبرر وجود هيئتين: اللافظ و الملفوظ له.و إذا كان التلفظ هيئة لسانية خالصة ، و بشكل موسع، سيميائية يفترضها منطقيا الملفوظ و تكون آثارها مسومة في الخطابات المفحوصة(10)، فإن الموضوع السيميائي يستعمل للدلالة على كل مجموعة دالة كيفما كان حدها (جملة، خطاب سياسي، رواية، لوحة، صورة فوتوغرافية، حملة اشهارية إلخ...) و كيفما كانت أشكال التعبير أو أنواع التجلي(سمعية، بصرية، شمية، ذوقية، لمسية) المختارة التي قد تتوحد في سيميائيات تسمى " تأليفية "على نحو ما نلحظ ذلك في السينما التي تشتغل على البصري و السمعي.

4.3 الأطر المفهومية للافظ و الملفوظ له

انطلاقا من الحد الذي وضع للموضوع السيميائي من منطلقات المقاربة السيميائية للتداولية،سنسعى الآن إلى فحص الفوارق الموجودة بين مكوني هذا الموضوع.نستند في هذا المسعى إلى المثال الذي ضربه جوزيف كورتيس حول مقطوعة من فيلم تظهر شخصين يتصارعان:على الستار لا نكون فقط إزاء مشهد صراعي ،بل إننا نتلقى أيضا وجهة نظر مبأرة و إطارا متبنى، لأن نفس هذه القصة قد تقدم من بعد أو من قرب ،من فوق إلى تحت أو من تحت إلى فوق ،وجها لوجه أو جانبيا،الخ:إن وضعيات و حركات الكاميرا –التي تمثل هيئة التلفظ–قابلة على هذا الأساس للتحديد و للبناء انطلاقا من الملفوظ المرئي المقترح على المشاهد. و عليه، فإن كل مقطوعة فيلمية تبرز بالضرورة وجهة نظر معطاة :كل ملفوظ يحيل بالضرورة على تلفظ خصوصي مناسب.من هنا فإن التأطير، زوايا أخذ الصورة،اختيار الأصعدة ،الخ.لا تخص على الإطلاق عوامل السرد و لا تمس لا من قريب و لا من بعيد الممثلين المتصارعين:كيفما كانت وضعية الكاميرا و بالتالي وجهة النظر المتبناة، فإن القصة – و نعني بذلك الملفوظ الملفوظ– تظل على حالها.و هذا يقودنا إلى القول بأن تقديم الخطاب ، الحكاية لا يرتهن في وجوده إلى الأدوار السردية (أو على وجه التحديد اللفظية)،بل إنه يبقى مربوطا بالأدوار التلفظية.

في هذا الموضع بالذات، يدرج السيميائيون عوامل التلفظ. إن التلفظ ،على النحو الذي حدده ج.كورتيس سلفا، فعل، عملية، و بهذا التحديد ،يمكن أن يماثل برنامجا سرديا محددا يعمل على إبراز ثلاثة عوامل.بقطع النظر عن /الفعل/ الذي يطابق الفعل التلفظي نفسه، فإننا إزاء فاعل الفعل (أو الفاعل اللافظ في مصطلحية كوكي) و هو اللافظ ،الموضوع المتنقل الذي يناسب ما هو ملفوظ؛ العامل الثالث الذي يتوجه إليه الملفوظ و هو الملفوظ له (المستفيد). و لئن كان اللافظ و الملفوظ له لا يظهران مباشرة في إطار الملفوظ، فإن هذه الأدوار تظل دائما مفترضة.في المقطوعة الفيلمية الخاصة

بالصراع، فإن اللافظ ليس في نهاية الأمر سوى هيئة تلفظية نستطيع أن نعيد بناءها انطلاقا من التأطير المختار. و تحيل زاوية أخذ الصور إلى فاعل الفعل (اللافظ)،و في الوقت نفسه ،إلى المنظور المختار الذي يكون مربوطا بعامل آخر هو الملفوظ له :و لا يدرك أي واحد من هذين العاملين في سير الفيلم.في هذا الموضع تنتصب هوة يستحيل تجاوزها بين الملفوظ و التلفظ الذي لا يدخل في صلب الملفوظ إلا من خلال آثاره.

بعد هذه التحديدات الأساسية، يجدر بنا أن ننظر الآن في وضع و مساري اللافظ و الملفوظ له و ما هي الاستراتيجيات التي يتبناها كل واحد منهما في أثناء العملية التلفظية.

1.4.3 الكفاءة الدلالية /الكفاءة الجهاتية عند اللافظ و الملفوظ له

يملك اللافظ كفاءة دلالية تتضمن السير المضمر لفعل معطى يحفظه الفاعل في ذاكرته و يضعه تحت تصرفه:فهي دلالية لأنها تحيل على مضمون محدد مربوط بسياق(11). إنها، إن شئنا،الخطة المتبعة أو الوصفة الموضوعة قيد الاستعمال التي يسخرها اللافظ لتنفيذ مهمة. بالنسبة للطباخ مثلا ،تأخذ "كفاءته الدلالية" شكل كتاب الوصفات.يمكن أن نضرب مثالا آخر من كليلة و دمنة : عندما طلب الملك دبشليم من بيدبا وضع كتاب مشتمل على الجد و الهزل و اللهو و الحكمة و الفلسفة، فإن بيدبا راح يفكر هو و تلميذه في الخطة التي سيسلكونها في وصف الصديق، و كيف يكون الصديقان، و كيف تقطع المودة الثابتة بينهما بحيلة ذي النميمة، فاهتديا إلى أن يكون كلامهما على لسان بهيمتين .فوقع لهما موضع اللهو و الهزل بكلام البهائم(12). و كانت الحكمة ما نطقا به.تشكل هذه الخطة المتبعة مضمون الكفاءة الدلالية التي تتميز عن الكفاءة الجهاتية الخاصة بمهارة (المعرفة الفعل) بيدبا في صناعة الموضوع السيميائي (كليلة و دمنة) . و نعني بها أيضا في المثال السابق مهارة الطباخ في إعداد طبق. قد تكون لشخص، من منظور دلالي،فكرة جيدة متجانسة و متسمة بتنظيم جيد و تحتكم سرديا إلى

بناء محكم جدير بإثارة اهتمام جمهور بعينه، غير أنه ،من منظور "تركيبي" (و نعني به مستوى التنفيذ) لا يملك هذا الشخص الرغبة(إرادة الفعل) أو القيد(وجوب الفعل) و لا الوسائل المناسبة(معرفة الفعل و/ أو القدرة على الفعل). هناك من الأساتذة من ينجحون في تمرير رسائلهم في حين يفشل آخرون على الرغم من أنهم يملكون في نقطة الانطلاقة نفس البضاعة الفكرية أو الكفاءة الدلالية. من هذا المنظور،إذا كانت الكفاءة الدلالية ذات طابع جماعي و مربوطة بنظام،فإن الكفاءة التركيبية تخص الجانب العملي و التحقيق الخاص بشخص معين. لا تكفي الكفاءة الدلالية للانتقال إلى الفعل. ينبغي أن نسجل هنا وجود علاقة تراتبية بين الكفاءتين " الدلالية " و " الجهاتية " : هذه تفترض تلك:إذا كان اللافظ ،مثلا،مالكا للرغبة في الفعل أو وجوب الفعل،للمعرفة الفعل و/أو القدرة على الفعل فلأن حدثا معينا سيكون وشيك الوقوع.إن اللافظ قبل أن ينتج الموضوع السيميائي يكون فقط في وضعية مفترضة.تساعد الكفاءة الجهاتية التي تفترض الكفاءة الدلالية على الانتقال إلى الفعل و لكنها لا تستتبعه على الإطلاق : قد يملك شخص كل الكفاءات التركيبية المطلوبة و لكنه لا يحقق أبدا ما هو جدير بتحقيقه.إن إثارة هذا الإشكال هو في حقيقة الأمر إعادة نظر في المراحل الخاصة بصيغ الوجود السيميائي استطاع من خلالها أ.ج.غريماس و ج.فونتانيل في دراستهما الموسومة بـــ Sémiotique des passions إضافة وضعية رابعة ممكنة و متوقعة على المربع السيميائي، و هي الكمون. و تكون مقطوعة هذه الصيغ على النحو الآتي : الإضمار، التحيين ، الكمون، و التحقيق :

يقول أ.ج.غريماس و ج.فونتانيل، من هذا المنظور، إن الكمون potentialisation يناسب "بابا مفتوحا في المسار السردي على المخيل

و العالم الانفعالي"(13) للفاعل. و هذا ما يفسر لماذا لا تفضي الكفاءة بالضرورة إلى الأداء المناسب.إن الشيء الذي ينقص هو هذه الانتفاضة الانفعالية(أو الحالة الشعورية) الضرورية للانتقال إلى الفعل.

و إذا كان غريماس و فونتانيل يقرران بأن هذه القوة كامنة في ذات الفاعل،فإن كورتيس يرى خلاف ذلك و يذهب إلى أن هذه الجهة خارجة عن إطار الفاعل و مستقلة عن الجهات الأخرى ،فهي جهة قاهرة لا يملك من القوة التي تجعله يعزف عن تنفيذ الفعل ،فهو من هذا المنظور مسير ، و ينزع بشكل حتمي إلى تحقيق الأداء .

يمكن أن نسقط الإجراءات نفسها على المسار الخاص بالملفوظ له الذي يملك من جهته أيضا كفاءة دلالية شبيهة بتلك التي يملكها اللافظ، و كفاءة جهاتية تحددها مجموعة من الجهات المضمرة ،المحينة ،الكمونية،و المحققة. و ينبغي أن نتوقع من جهة أخرى البعد المعارفي (الفهم) و البعد التيمي الخاص بالانفعالات و الحالات الشعورية. في كليلة و دمنة توقع الفيلسوف بيدبا وجود هيئتين متلقيتين لا تملكان المستوى الثقافي نفسه في تلقي رسالة النص : "فأصغت الحكماء إلى حكمه و تركوا البهائم و اللهو، و علموا أنها السبب في الذي وضع لهم.و مالت إليه الجهال عجبا من محاورة بهيمتين، و لم يشكوا في ذلك، و اتخذوه لهوا ،و تركوا معنى الكلام أن يفهموه،و لم يعلموا الغرض الذي وضع له"(14). إن المستوى الثقافي الخاص بهيئة العلماء يرد التواصل بينها و بين بيدبا سهلا؛ و يكاد يكون مستحيلا لافتقاد هيئة الجهال إلى الشفرة الثقافية التي تمكنهم من الدخول في وصلة بقيم عالم كليلة و دمنة.

2.4.3 استراتيجيات اللافظ

إن العلاقة التواصلية بين اللافظ و الملفوظ له تقودنا إلى فحص الاستراتيجيات التي يتخذها الأول لحمل الثاني على الانخراط في مشروعه.إذا دققنا النظر في هذه المسألة، نلاحظ أن اللافظ يسخر كفاءته في

بعديها الدلالي و الجهاتي لتحريك الملفوظ له تحريكا يأخذ على الأقل شكلين. الأول إيجابي من نوع/فعل الفعل/ و الثاني سلبي/ فعل لا فعل / (أو "منع حدوث الفعل"). و لتوضيح ذلك، نستند إلى المثال الذي ضربه ج.كورتيس حول مقطوعة فيلمية تبرز شخصين يتصارعان. إن التحريك يتمثل هنا من موقع اللافظ الذي يبرز المشهد للملفوظ له،و يعرضه عليه للرؤية /faire voir/، و يمنعه في الوقت نفسه و بشكل متكامل من رؤية شيء آخر(=/فعل لا فعل/).إما عن طريق الانتقال من الصعيد الشامل plan d'ensemble إلى الصعيد المكبرgros plan : هذا التحويل المرئي الذي يقرب المشاهد من المشهد المعني،يمنعه في الوقت نفسه من رؤية ما كان يراه سابقا،و بطريقة عكسية،إذا انتقلنا من الصعيد القريب إلى الصعيد الشامل،فإن التفاصيل الملاحظة في البداية تبدو و كأنها تذوب، و تتخفى في الصور اللاحقة. إن الحركات التي تفترضها الكاميرا، و وجهات النظر المرئية المتبناة على التوالي ليست حيادية و عديمة المعنى :إنها بخلاف ذلك محملة بالمعنى،و لها وظائف دلالية محددة.و لئن كان اللافظ يختار /فعل الفعل/(جعله يرى) أو /فعل لا فعل/(جعله لا يرى) من خلال لعبة تكبير أو تصغير الحقل المرئي، فإنه قد يكون لجأ إلى هذا بسبب القيم الموضوعاتية-التي يظهرها الصعيد الشامل أو الصعيد المكبر-التي يرغب اللافظ من خلالها في انخراط الملفوظ له:إن الانتقال من الصعيد الشامل إلى الصعيد الكبير يعد طريقة في لفت انتباه الملفوظ له و إشعاره بما يراه مهمًّا نظرا لأهمية التحريك في كسب رهانات مصيرية،سنفحص الآن العلاقة الأساسية بين الفيلسوف بيدبا و الملك دبشليم في كليلة و دمنة، و نوضح بعد ذلك الاستراتيجية التي سخرها الأول لحمل الثاني على الانخراط في مشروعه.

1.2.4.3 التحريك/الاستراتيجية الخطابية في كليلة و دمنة

تشكل النصيحة رهانا حقيقيا لبيدبا الذي يتحمل لوحده مسؤولية تغيير النظام السياسي من الداخل و بطرق سلمية . و يهدف هذا الفعل إلى رد

الأمور إلى سابق عهدها و تشييد الاستيثاق بين الملك و الرعية . و قد جاء وصول دبشليم إلى سدة الحكم نتيجة لتمرد الخاصة والعامة على ملك سابق أوصله الاسكندر ذو القرنيين دون استشارة الرعية إلى السلطة مباشرة بعد غزوه للهند .و لما كان فعله السياسي معبأ لإذلال الرعية ،فإن هذا الملك الذي يعد من ثقات الاسكندر سرعان ما عزل.إن تمليك الرعية لدبشليم مسيج في إطار عقد ائتماني يتم بموجبه تشييد عالم تحكمه مجموعة من القيم جاءت لتسد وضعية افتقار سابقة ناتجة عن سوء التسيير. و بعد أن استوثق له الأمر و استقر له الملك و أحكم سيطرته على الرعية، يخرق دبشليم العقد فيحدث بذلك هوة عميقة بينه و بينها.نلمس ذلك في الأدوار الجديدة التي اضطلع بها دبشليم :طغى و بغى و تجبر و تكبر[ص.11].و قد حركته هذه السطوة للقيام بأفعال عدوانية: :عبث بالرعية ، استصغر أمرهم و أساء السيرة فيهم. في هذه اللحظة السردية،يفقد الراوي الأمل في تغيير الوضع و حتى في إمكانية التفكير في اقتراح البديل و الخروج من هذا المأزق الذي يهدد الإنسان في وجوده، و كل المؤشرات السردية التي ساقها ترشحه للتدهور و بقائه على النحو الذي ابتغاه دبشليم :"فهابته الرعية،و كان لا ترتقي حاله إلا ازداد عتوا"[ص.11] و لئن كانت الهيبة تلغي كل القنوات التي يمكن أن ترسى لإقامة التواصل مع الملك و الحديث إليه عن أمور الملك ، فإن امتلاك القدرة على مقاومتها و مواجهة الملك يعد أمرا مستحيلا ،لأن ذلك سيؤدي حتما إلى الهلاك :

" غير أننا نعلم أن السباحة في الماء مع التمساح تغرير
و من دخل على الأسد في غابته ،لم يأمن من وثبته
و هذا الملك لم تفزعه النوائب ، و لم تؤدبه التجارب
و لسنا نأمن عليك و لا على أنفسنا سطوته و إنا نخاف عليك من سورته و مبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يحب"[ص.14] .

إن الفيلسوف بيدبا بحكم امتلاكه للمعرفة و من موقعه كمرسل/ مقوم أدرك أن الرعية التي فوضت دبشليم لتسييرأمورها، لم ينفذ برنامجه طبقا

للالتزامات المتضمنة في العقد الذي يربطه ضمنيا بالرعية التي تعتبر المرسل الحقيقي الذي أزاح الملك السابق و سلم مقاليد الحكم لدبشليم. و من الواضح أنه من حق الرعية أن تنظر فيما إذا شرف الملك التزاماته أم أنه خرقها في أثناء تسييره للفعل السياسي.

إن هذه الفرضية لا تستقيم لأن الملك صنع نظاما يستحيل على الرعية تقويم البرامج التي تفرزها الممارسة السياسية.فهي بين أمرين :السكوت عما يجري أم التدخل في مسألة الملك و المخاطرة بالنفس.و من ثم ،فإن النزوع إلى الاختيار الثاني سيفضي إلى مواجهة سياسية بين قوتين غير متكافئتين: القوة الأولى مجسدة في دبشليم الذي يملك السلطة السياسية و السلطة العسكرية، أما القوة الثانية التي يقفُ وراءها بيدبا فإنها تحتكم إلى العقل و الأسلوب الحجاجي في حل المشاكل الكبرى.من هنا، فإن امتلاك بيدبا للمعرفة يعد معطى ثابتا في النص :"رجل فيلسوف(...)،فاضل حكيم ،يعرف بفضله،و يرجع في الأمور إلى قوله " [ص.11]. و لما كان يدرك أن " الوحيد في نفسه و المنفرد برأيه فهو ضائع و لا ناصر له"[ص.13]،جمع تلاميذه بهدف مشاورتهم و تحريكهم في فعل جماعي تكون الغاية منه حمل الملك على تغيير أسلوب الممارسة السياسية و إحداث وصلة حقيقية بالرعية .و تأتي فكرة التحالف التي اقترحها على تلاميذه من موقع الوشائج المتينة التي تربطه بهم :

"و قد جمعتكم لهذا الأمر :لأنكم أسرتي و مكان سري و موضع معرفتي،و بكم أعتضد ،و عليكم أعتمد"[ص.13]. فهو يحدد لهم من خلال صورة الأسرة انتماءه من ناحية و انصهار أناه من ناحية ثانية في مجموعة تحكمها قرابة علمية مبنية على عقد ثقة.على هذا الأساس،يثمن بيدبا الفعل العلمي الناشئ من فضاء تستثمر فيه القيم العلمية و تصنع فيه المعرفة. من هذا الموقع ، يستمد القوة الكفيلة بقلب موازين القوى على مستوى هرم السلطة. إن بيدبا يسعى بخطابه إلى تعبئة تلاميذه بوصفهم النخبة المثقفة الفاعلة في

المجتمع الهندي.و هي تعبئة قائمة ،على المستوى المعارفي ،على الإقناع بالحجة:" على أن العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ بالخيل و الجنود"[ص.13]

و كما استطاعت القبرة أن تلحق أضرارا جسيمةٍ بالفيل المتسلط من خلال تحريكها للغربان (فقأ عيني الفيل) و الضفادع (انتقالها إلى وهدة و إحداث النقيق لحمله على الشرب و السقوط)، و كما استطاعت الأرانب بفضل ذكاء فيروز أن تدفع الفيل إلى التوبة من خلال تحريك صورة القمر،فإن بيدبا يملك من القوة(القدرة العقلية) التي تجعله يحول مجرى الفعل السياسي للملك لصالح الرعية.بهذا الخطاب الحجاجي يسعى بيدبا إلى إقناع تلاميذه رغبة منه في انخراطهم في برنامج يرتكز أساسا على البعد المعارفي dimension cognitive في مواجهة الملك: " و لا يمكن مجاهدته بغير ألسنتنا"[ص.12]. و لئن كانت مسألة التحالف مع الغير للقيام بهجوم عسكري على الملك غير واردة :"و لو ذهبنا إلى أن نستعين بغيرنا لم تتهيأ لنا معاندته "[ص.12]، فإن فكرة الجلاء عن الوطن غير واردة أيضا :" و ليس الرأي عندي الجلاء عن الوطن" [ص.11]

إن قراءة بيدبا للبرنامج السياسي للملك جعله يقوم تقويما سلبيا ممارسته للسلطة التي تجسدت عبر أفعال تنصهر في برنامج أساسي موجه ضد وجود الرعية و حقها في الحياة و يبين الحدة التي بلغها الملك في تعامله مع الرعية.و يتجسد هذا البرنامج عبر مجموعة من الأفعال طغى و بغى و تجبر وتكبر(...) ،عبث بالرعية ، استصغر أمرهم و أساء السيرة فيهم[ص.11] ، تعكس طبيعة تعامل الملك مع الرعية و علاقته بها المتوترة و المبنية أساسا على التسلط و الظلم و الإسراف فيه و خرق الحقوق الطبيعية للرعية و السعي بالفساد خارجا عن القوانين المنظمة للممارسة السياسية .

و إذا انتقلنا إلى المستوى الخطابي،فإننا نلاحظ أن هذا البرنامج يلقى تجلياته في مسارين صوريين . يتضمن الأول مجموعة من الصور تحيل وحداتها المضمونية على حاكم لا يمتثل في سلوكه لمقتضيات النظام الخلاقي الذي يحتكم إليه كل فرد في المجتمع .و يتشكل هذا المسار من الصور

الآتية: رداءة السيرة ، سوء السيرة ، قبح الطريقة ، المبادرة بالسوء .أما المسار الثاني الذي يتشكل من صور السطوة و السورة ،و الظلم للرعية ، و الخروج عن العدل و لزوم الشر ،فإنه يعمل على توصيف ممارسة دبشليم للسلطة. و لئن كان دبشليم مشيدا هذه الممارسة على القمع و البطش، فإنه استطاع و بشكل مؤقت أن يلقي الرعب في قلوب الرعية العامة و الخاصة: " فهابته الرعية " [ص.11] و يصرفها بشل قدرتها على الفعل عن كل محاولة تهدف إلى قلب نظامه ، و سيكون لها أثر في إبطال مفعول تحريك بيدبا للعامل الجماعي التلاميذ.من هذه المنطلقات سعى الفيلسوف إلى تحريك الخاصة من الرعية و إقناعها لا بمشروعية خلع الملك و لكن بضرورة تحمل المسؤولية للحديث إليه في أمور الملك.و قد بدأت تتضح معالم هذا البرنامج في شكله المضمر في اللحظة السردية التي مارس فيها بيدبا فعله التأويلي في القيم التي أفرزها البرنامج السياسي الذي نفذه الملك.و قد أفضى هذا التأويل إلى تقييم سلبي حركه للقيام ببرنامج مضاد يكون الهدف منه تحريك الملك للدخول في وصلة بقيم العدل التي يحتكم إليه تسييره للفعل السياسي.

على الصعيد السردي، يسعى بيدبا إلى تحريك الفاعل الجماعي التلاميذ لتأسيسه مرسلا محركا يمارس سلطته المعرفية على الملك لحمله على القيام ببرنامج سياسي ينهض أساسا على المشاورة و الحوار و العدل و الإنصاف في حل المشاكل التي يعرض لها المجتمع الهندي. و على الرغم من أن التلاميذ اقتنعوا بصدق خطابه الذي يلقى توافقا مع طموحاتهم و رغبتهم في التغيير، و نبل القيم التي يدافع عنها و الرامية إلى إعادة الاستقرار ،فإنهم رفضوا الانخراط في مشروعه تأمينا لحياتهم و خوفا من بطش الملك و سطوته عليهم و عليه .إن خوفهم من رد فعل الملك و توقعهم للهزيمة والشعور بالقلق من خطر وشيك الوقوع يودي بحياتهم أبطل مفعول رغبتهم، و عطل قدرتهم ،و قلل من أهمية مواجهته بالحيلة (المعرفة).

يقف وراء الهدف من التحريك التلفظي انخراط الملفوظ له في الطريقة التي ينبغي أن يرى بها، و نعني بذلك تبنيه وجهة نظر اللافظ. و إذا كان تبني الملفوظ له الاقتراحات المعروضة عليه ينهض على التأويل الإيجابي

لمضمون التحريك، فإن رفض هذه الاقتراحات يكون مشيدا على التأويل السلبي لما يعرض عليه. ينبغي أن نفهم الرفض على أنه تعبير عن قناعة(على المستوى الفردي أو الجماعي) تظل راسخة و أن القبول يعني أولا التحرر من قناعة سابقة و الانخراط في قناعة لاحقة.تأسيسا على هذا، يكون الفرد خاضعا للنظام عندما تكون الروابط التي تقيمها الجماعة تضمن له الحياة و الاستقرار، ويتمرد عليه و يتحرر منه كلما قصرت في ضمان الأمن له و اتضح أنها تؤذيه أكثر مما تنفعه. يكتسي الفعل التلفظي في هذا السياق أهمية بالغة لأنه يحتل درجة أرقى من الفعل و هو فضلا عن كونه يدل، فإنه يعني حمل الآخر على الاقتناع بهدف ربطه(15).

من هنا، يمكن أن نتوقع على الأقل وضعيتين عامليتين ممكنتين يمكن أن يحتلهما الملفوظ له.و هو في كل ذلك قد يتأرجح في أثناء تأويله لرسالة اللافظ بين المعارض و المتعاطف و المنخرط على نحو ما نلحظ ذلك مثلا في أثناء محاضرة يلقيها أستاذ.بقدر ما يصغي إليه الطلبة و يشتركون معه في وجهة نظره فإنهم ينخرطون في طروحاته، و تسمى هذه الظاهرة التطابق.و قد يتحول الطلبة من هذه الوضعية إلى وضعية الملفوظ له المضاد و ذلك في حالة تراجعه الممكن عندما لا يثير المحاضر اهتمام المستمعين، أو أنه لم يتحكم في محاضرته،أو أنه لم يكن مقنعا بشكل كاف.

الإحالات و الهوامش

(1) Oswald Ducrot,Tzvetan Todorov,Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage,Seuil,Points,Paris,1972,p.423.

(2) Roland Posner,Signification et usage des connecteurs proposisionnels dans les langes naturelles in Actes sémiotiques-Documents,n°56, 1984

(3) Op,p.11.

(4) Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale , tome1 , Gallimard, Paris, 1966.

(5) يميز غريماس في صلب الخطاب الملفوظ بين أ) عوامل التبليغ(أو التلفظ) و هم الراوي و المروي له و المخاطب و المخاطب (الذين يساهمون في بنية التخاطب م هي الحوار) ب) عوامل السرد (أو الملفوظ):الفاعل/الموضوع، المرسل/المرسل إليه؛في هذا الموضع ،يقابل بين العوامل التركيبية (المسجلة في برنامج سردي معطى) كفاعل الحالة و فاعل الفعل، و العوامل الوظيفية (أو النظمية) التي تضطلع بأدوار عاملية في مسار سردي محدد (المعجم ،ص.3-4).

(6) A.J.Greimas , J.Courtés ,Sémiotique / Dictionnaire raisonné de la théorie du langage ,HU, Paris , 1979 ,p.125.

(7) J.Courtés, La sémiotique du langage, Nathan Université, Paris , 2003,p.112

(8) J.Courtés , L'énonciation comme acte sémiotique , Nouveaux actes sémiotiques ,Pulim,Université de Limoges, n°58-59,1998,p.12.

(9) المرجع السابق ، ص. 15

(10) J.Courtés ,Analyse sémiotique du discours,de l'énoncé à l'énonciation,Hachette, Paris,1991,p.247/248.

(11) J.Courtés , L'énonciation comme acte sémiotique , p.21.

(12) بيدبا ، كليلة و دمنة ، ترجمة عبد الله بن المقفع ، مؤسسة المعارف ،بيروت، 1983،ص.26.

(13) J.Courtés , L'énonciation comme acte sémiotique ,p.24.

(14) بيدبا ، كليلة و دمنة،ص.26.

(15) Albert Assaraf ,Quand dire , c'est lier.Pour une théorie des ligarèmes, Nouveaux actes sémiotiques ,Pulim,Université de Limoges, n°28,1993,p.11/14.

البيبليوغرافيا

1-Oswald Ducrot,Tzvetan Todorov,Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage,Seuil,Paris,1972.

Roland Posner,Signification et usage des connecteurs Actes sémiotiques- proposisionnels dans les langues naturelles in Documents,n°56, 1984

3-Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale , tome1,Gallimard,Paris,1966

4-A.J.Greimas, J.Courtés ,Sémiotique / Dictionnaire raisonné de la théorie du langage ,HU, Paris , 1979.

5-J.Courtés, La sémiotique du langage, Nathan Université, Paris , 2003.

6-J.Courtés, L'énonciation comme acte sémiotique, Nouveaux actes sémiotiques, Pulim,Université de Limoges, n°58-59,1998,p.12.

7-J.Courtés ,Analyse sémiotique du discours,de l'énoncé à l'énonciation,Hachette, Paris,1991.

8- بيدبا ، كليلة و دمنة ، ترجمة عبد الله بن المقفع ، مؤسسة المعارف ،بيروت، 1983

9 -Albert Assaraf ,Quand dire , c'est lier.Pour une théorie des ligarèmes, Nouveaux actes sémiotiques ,Pulim,Université de Limoges, n°28,1993.